

إقليم حمزة في عيون الجغرافيين وكتابات المؤرخين

**Hamza Province in the Eyes of Geographers
and Writings of Historians**

الدكتور: مصطفى باديس أوكيل

مخبر التاريخ المحلي والذاكرة الجماعية والمقاربات الجديدة،

جامعة أكلي محند ولحاج- البويرة

- ملخص:

يتناول هذا المقال "بلاد حمزة" - إقليم البويرة حاليا- من خلال نوعين من المصادر: أولاهما المصادر الجغرافية، وثانيهما مصادر التاريخ العام. هذا، وقد تطرق النوع الأول من المصادر (أي الكتب الجغرافية) إلى موقع بلاد حمزة وبناؤها وسكانها... كما بين الرقعة التي تتوزع عليها هذه المنطقة. وفي المقابل ذكرت كتب التاريخ العام عدّة أحداث سياسية وعسكرية هامة كانت بلاد حمزة مسرحا لها. وكل ذلك إنما يعكس أهمية هذه المنطقة وإسهامها المتميز في تاريخ الغرب الاسلامي.

- الكلمات المفتاحية: بلاد حمزة، الجغرافية، الجغرافيون، التاريخ، الغرب الاسلامي.

Abstract;

This study concerns the current region of Bouira, called during the medieval period "Bilad (country) of Hamza". It approaches it through two types of documents: geographical sources, as well as old books of general history. Also, the first sources (namely the books of geography) bring clarifications concerning the old location of the ancient city of Hamza, its construction, and its inhabitants... as well as its extent, its limits and its various geographical characteristics. . On the other hand, the general history books mention several important political and military events of which the country of Hamzah was the scene. All of this reflects the importance of this region and its distinguished contribution to the history of the Muslim West.

- Keywords: Hamza, Geography, Geographers, History, Muslim West.

المقدمة:

تحدث الكثير من الرحالة الجغرافيين والمؤرخين عن مدينة حمزة (البويرة) وذكروها بأسماء مختلفة، منها حمزة وسوق حمزة، وحائط حمزة، وغيرها، سواء من زار المنطقة أو لم يزرها ونقل من مصادر أخرى مرت بها أو سكنتها، ونذكر منهم على سبيل المثال اليعقوبي والبكري وابن حوقل والمقدسي وياقوت الحموي وغيرهم كثير.

هذا تناول الذي سوف يعرج على الموقع وعلى البناء والبناني الذي هو -كما سنرى- أحد أعقاب الإمام علي بن أبي طالب، كما سوف تتعرض النصوص إلى الرقعة الجغرافية الواسعة التي امتدت فيها هذه الأسرة الشريفة والتي كانت منها بلاد حمزة ، كما تناولت النصوص التاريخية منها على بعض التطورات السياسية وعلى بعض الدول المستقلة ببلاد المغرب التي تجاذبت المنطقة موضوع البحث.

1- نصوص الجغرافيين:

نبدأ من الجغرافيين الذين تطرقوا لبلاد حمزة بالجغرافي أحمد بن أبي يعقوب اسحق جعفر بن وهب بن واضح الشهير باليعقوبي والمتوفي سنة 284هـ/897م، صاحب الكتب المهمة في الجغرافية الإقليمية الوصفية، وهو الذي زار البلدان التي أرخ لها، وكان يسأل الناس أهل الأمصار عن بلدانهم وعاداتهم ونحلهم وحكامهم ثم يؤرخ بعد التدقيق ومقارنة الروايات، فجاءت كتبه بوصف دقيق حتى أنه لم يكن يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أثبتتها في كتابه الموسوم بكتاب البلدان، حيث يعتبر أقدم مصدر جغرافي وأوثقه لدقته التي ميزته⁽¹⁾.

حيث ذكر اليعقوبي حمزة في حديثه عن حواضر المغرب الأوسط إذ قال: "... وطبنة مدينة الزاب... وبها يتزل الولاة... وإذا خرج الخارج من عمل الزاب مُغَرَّبًا صار إلى قوم يقال لهم بنو برزال زناتيين شراة كلهم... هذا البلد الذي تغلب عليه الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأوّل المدن، التي في يده مدينته يقال لها "هاز" سكانها قوم من البربر القدم يقال

(1) عبد القادر بوباية، المؤنس في مصادر تاريخ المغرب والأندلس، ط1، الجزائر دار كوكب العلوم، 1432هـ/2011م، ص15.

لهم "بنو يرنيان" من زناتة أيضا ثم مدن بعد ذلك سكانها صنهاجة وزواوة يعرفون بالبرانس، وهم أصحاب عمارة وزرع وضرع، وإلى هاز ينسب البلد⁽¹⁾، وبينها وبين عمل أدنته مسيرة ثلاثة أيام⁽²⁾.

وهذا جغرافي آخر تحدّث عن مدينة حمزة أو سوق حمزة وهو البكري المتوفي سنة 487هـ/1094م في كتابه "المسالك والممالك" (جزء منه مسمى كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، من بين أهم المصادر الجغرافية رغم أنه لم يغادر بلده الأندلس إلا أن معلوماته موثوقة جدا حيث أخذ واقتبس من مصادر جغرافية مفقودة اليوم ولم يعد أو يرجع إليها من سبقه، ومنه جاء كتابه في غاية الدقة في وصف أقاليم المغرب خاصة.

فيقول عن بلاد حمزة: "تخرج من مدينة أشير إلى شعبة وهي قرية، ومنها إلى مضيق بين جبلين، ثم تفضي إلى فحس (كل موضع يُسَكَن) أفيح تجمع فيه عروق عاقر قرحا، ومن هذا الموضع تحمل إلى الأفاق، وهناك مدينة تسمى حمزة نزلها وبناها" حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه"، والحسن بن سليمان هو الذي دخل المغرب وكان له من البنين حمزة هذا وعبد الله وإبراهيم وأحمد ومحمد والقاسم وكلهم أعقب، وعَقِبُهُمْ هناك⁽³⁾.

ثم يواصل حديثه عن مدينته حمزة ويصف لنا تحصيناتها قائلا: "وهي مدينة عليها سور وخندق"، واستعمال الخنادق المائية قليل ما نجده في المدن التلية بل هو صفته لمدن الواحات الصحراوية أو لعل وجود الخنادق حول حمزة (البويرة) يرجع بالدرجة الأولى لوفرة المياه وفيها يقول: "وبها آبار عذبة"، وهي لصنهاجة، حيث كان سكان

(1) أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي، كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن سنة 1820م، ص121، 122.

(2) يظهر من قول اليعقوبي احتمالا: الأول أن "هاز" كانت مدينة أقرب إلى ما يسمى اليوم بمدينة عين بسام أو نفسها أو هي أنقاضها لأنه هو أي اليعقوبي يجعل أقرب المدن إليها "سوق حمزة"، وهذا عطفًا على ما ذكره فيما بعد الجغرافي الإدريسي: "قرية هاز في فحس رمل مرحلة غير بعيدة عن أشير، وقدر المسافة بينهما بمرحلتين" وقال أيضا: "أنها الآن خراب" أي يتحدث عن القرن السادس للهجرة.

(3) أبي عبيد البكري الأندلسي: المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2003م، ج2، ص271.

المدينة يستغلون مياه الآبار في الشرب وسقي الأراضي المجاورة لأن المدينة تقع في سهل وهو ما يميز وفرة المحاصيل الزراعية⁽¹⁾.

ولكي نوضح الموقع الحقيقي لمدينة حمزة أو سوق حمزة أكثر نواصل مع مؤلفنا الجغرافي البكري إذ يقول: "وتسير من حمزة إلى بلياس (وهي في جبل عظيم)⁽²⁾ ... ومن بلياس إلى مرسى الدجاج مدينة مرسى الدجاج قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح، وقد ضرب بسور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، ومن هناك يدخل إليها وأسواقها، ومسجد جامعها داخل ذلك السور له باب واحد، ولها مرفأ غير مأمون لضيقه وقرب قعره"⁽³⁾.

كما يواصل البكري حديثه عن مدن أخرى واصفا المسافات بينها كالطريق من القيروان إلى مرسى الدجاج ، فأعاد في حديثه ذكر مدينة "سوق حمزة"، ومن ذلك سكانها ، فيقول أنها مسكونة من طرف الكتامين (ولعل الكتامين الذين قصدهم البكري هم زواوة لأنهم حسب ابن خلدون إحدى بطون قبيلة كتامة)، وقال أيضا: "وقبائل من كتامة في شرق المدينة"، ثم يعيد ذكر المدينة مرة أخرى في حديثه ووصفه للطريق الذي يربط بين مرسى الدجاج بمدينة حمزة⁽⁴⁾، ذاكر أن وفي وسط الطريق مدينة بني جناد"⁽⁵⁾.

(1) في مقابلة مع المؤرخ و الأثري الفرنسي (Jean Pierre laporte) دراسة ميدانية، ذكر لي أنه يحتمل جدا أن المدينة التي تسمى "حمزة" أو التي أسسها حمزة بن الحسن تكون ربما مدينة "عين بسام" اليوم أو في فحصها اتجاه البويرة اليوم، خاصة أن الجغرافي اليعقوبي ذكر أن المدينة التي كانت سوق لمدينة حمزة وليست هي حمزة، ذلك انه جرت العادة أن تجعل السوق خارج المدينة. ومنه استنتج أنه هناك مدينتان الأولى حمزة والأخرى سوق حمزة.

(2) لم نتعرف بالضبط اليوم على مدينة بلياس.

(3) حسب بعض الأثرين فإن المدينة الوحيدة بين مدينة الجزائر ومدينة دلس، والتي لها مواصفات مرسى الدجاج هي اليوم "كاف ماتيفو" أو "كاب ماتيفوا" ولأنها من البر بواسطة سور والبحر مما جعل البكري يقول بأن ميناءها أو مرفأها غير مأمون في حين وجدنا من يرجعها اليوم إلى مدينة زموري حسب بعض الحفريات الحديثة.

(4) البكري، المصدر السابق، ص150

(5) لعلها مدينة كاب جنات اليوم.

وهذا جغرافي آخر وهو ابن حوقل المتوفى سنة 380هـ/990م والذي زار المشرق والمغرب وأوروبا في ثلاثين سنة، وكان ممن زار الأندلس برهة من الزمن، حيث قدم لنا معلومات دقيقة خاصة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ووصف عمران المغرب الإسلامي جيداً كيف لا وقد كان شاهد عيان وثق وصفه بخريطة.

قال عن مدينة حمزة: "ويأخذ من المسيلة من جانب النهر المقابل طريق إلى اليسار عليه ابن مامه وطريق آخر يميل إلى الأعلى عليه تامزكيدا، أشير، سوق كران، مليانة، بين سوق كران والنهر مدينة حائط حمزة على الطريق الآخر إلى سطيف، ويقرأ موازيا للطرف الأسفل من الصورة"⁽¹⁾.

كما تحدث أحد كبار الجغرافيين العرب عن حمزة وهو أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي المقدسي المتوفى 387هـ/997م في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" وهو كتاب عبارة عن تلخيص لما شاهده وعائنه في رحلاته وأسفاره الطويلة، وخدماته للملوك ومجالسته للقضاة، مع اعتماده على مؤلفات جغرافيين سبقوه، وقد أضاف وصحح بعض الأخطاء كانوا قد وقعوا فيها حيث كان أكثرهم تدقيقاً وتمحيصاً.

ولقد زار المقدسي بلاد المغرب كله ودون ما كان يراه من أقاليم ومن أحداث، كما زار بلده الأندلس، ويذكر سوق حمزة مختصراً: "وسوق حمزة مدينة فرع البحر"⁽²⁾

(1) ابن حوقل النصيبي البغدادي الموصل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992، ص67.

(2) ناشر الكتاب أي مطبعة ليدن 1909 في الطبعة رقم: 02 صحح في الهامش وقال باللغة اللاتينية: Quae bona est description urbissuq « hamza » quille quae non adiacet mai, probalilter in utroque cortricelacuna est, et excidit nomen الدجاج ait soc restotienetumsit.

- وسوق حمزة مدينة في فحص، بناؤهم من الطين وشرهم من أنهر وأعين، مرسى الدجاج مدينة على البحر، ص228.

وقد يبدو أن المقدسي وقع في سهو عندما تحدث عن سوق حمزة واستعمل مصطلح البحر عوض مصطلح فحص لأن ما بعدها جاء صحيحاً (أي البناء من الطوب والشرب من أنهر وأعين، وهو ما يتفق عليه كل الجغرافيين والرحالة).

بناؤهم من الطوب وشرهم من نهر وأعين"⁽¹⁾.

ومن بين الجغرافيين ممن تحدث عن حمزة كذلك نذكر ياقوت⁽²⁾ الحموي المتوفي سنة 626هـ/1228م، هذا الجغرافي الذي أخذ أسيراً من بلاد الروم ثم حُمل إلى بغداد، بعدها أعتق وأخذ يسافر في البلدان، فكتب لنا كتابه هذا وقد جاء معجماً جغرافياً، بالإضافة إلى أنه كتاب تاريخ وأدب، كما ترجم للعلماء المنتمين للمدن التي زارها، ومنها مدينة حمزة كما سماها، وفيها قال: "هي بالفتح ثم السكون وزاي ثم قال: قال البكري [نقلاً عنه] ثم زاد: ينسب إليها أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله بن داود الحمزي المغربي. كان فقهاً صالحاً، سمع ببغداد أبا نصر الزيني، وبالبصرة أبا علي التستري، روى عنه أبو القاسم الدمشقي وقال توفي سنة 527هـ"، وأضاف: "وسوق حمزة بلد آخر بالمغرب، وهي مدينة عليها سور يزلها صنهاجة، منسوبة أيضاً إلى حمزة بن حسن بن سليمان، وهي أقرب إلى الأولى"⁽³⁾.

نصوص المؤرخين:

من بين المؤرخين الذين تحدثوا عن مدينة حمزة نجد أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي المتوفي سنة 626هـ/1228م وهو المؤرخ المغربي الصنهاجي⁽⁴⁾ الذي زار أقطار المغرب والأندلس، وتولى وظائف عليا منها القضاء، الذي سمح له بأن يكون على دراية بالوثائق وعلى اتصال دائم بالكتاب والمؤرخين والجغرافيين، وقد أرخ لنا وترك لنا مؤلفه الموسوم "بأخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم" وهي دراسة عن الفاطميين الذين حكموا المغرب خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين.

(1) أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المقدسي البناء الشامي المعروف بالبشاري، كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص227-228.

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص302.

(3) قد نفهم من كلام ياقوت الحموي أن مدينة سوق حمزة التي تحدث عنها وقال أنها أقرب إلى الأولى أن كلامه يؤكد لنا ما ذهب إليه يعقوبي قبله أنه كانت هناك مدينتان الأولى حمزة والثانية سوق حمزة وهما متقاربتان.

(4) أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، (ص69، عُد إليه).

قال ابن حماد في حديثه عن الخليفة الفاطمي الثالث اسماعيل المنصور الذي حكم بين سنوات 334هـ إلى 341هـ: "... ونزل اسماعيل المسيلة فأقام بها أيامًا، تعدل أعواما (يقصد نظير أعماله الكبيرة بها وهو تعبير مجازي)... ونزل اسماعيل في طرف صنهاجة في خباء لطارق الفتى، ثم توجه إلى حائط حمزة هناك، وفرق الأرزاق وأجزل العطايا، ووصل إليه زيري بن مناد في عساكر صنهاجة، فوصله وفضله... وخلع عليه ثيابا كبيرة من لباسه وأعطاه من الطيب والطرائف الملوكية مالا يحيط به الوصف ولا يعمه الحصر، وأفاض عليهم وعلى كافته صنهاجة إفاضة استسلم بها قلوبهم واستخلص عيونهم فصفت نياتهم، وخلصت طوياتهم، وحسنت فيه معتقداتهم، ورحل من حائط حمزة فنزل على وادي لعلع (جنوب المسيلة) في شعار كذلك"⁽¹⁾. ومن المؤرخين كذلك من تحدث عن حمزة النويري المتوفى سنة 733هـ وهو المؤرخ التميمي القرشي، صاحب أحد أهم موسوعات القرن الثامن للهجرة "نهاية الأرب في فنون الأدب"، ويقع كتابه في نحو ثلاثين سِفرًا أو اثنان وثلاثين جزءًا ويهمننا الجزء الثاني والعشرين والرابع والعشرين منه، وهو المؤرخ الذي اعتمد على مصادر أولية وبعضها مفقود اليوم.

تحدث عن حمزة في الباب السادس في سياق حديثه عن بناء مدينة أشير حيث قال: "ولما نظر زيري إلى موضعها قال لأصحابه: هذا موضعكم الذي يصلح أن تسلكوه وعزم على بنائها، وذلك سنة أربع وعشرين وثلاثمائة أيام القائم بأمر الله بن المهدي: قال: وأمر زيري بإحضار البنائين والنجارين من حمزة"⁽²⁾ والمسيلة وطبنة، بعث إلى القائم بأمر الله في طلب صنّاع، فبعث إليه برجل لم يكن بإفريقية أعلم منه، وأعانه بعدة كثيرة من الحديد وغيره، وشرع في البناء إلى أن كملت المدينة"⁽³⁾.

كما ذكر النويري حمزة في موضع آخر في حديثه عن حروب زناتة إذ قال: "وكانت زناتة قد استطالت على أهل تلك الناحية من أيام بني الأغلب، ثم تزايد أمرهم أيام المهدي والقائم، فلما سمع القائم ببناء زيري هذه المدينة، حمد الله على ذلك وقال:

(1) من الأسماء التي عرفت في التاريخ الوسيط والمنسوبة إلى مدينة حمزة بالإضافة إلى سوق حمزة نجد حائط حمزة، والذي أستعمله بن حماد وغيره من المؤرخين والجغرافيين ولا ندري بالضبط من أين جاءت تسمية حائط.

(2) هو دليل على أن حمزة كانت موجودة وبنيت قبل بناء أشير سنة 324هـ.

(3) شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (ص88).

مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر"⁽¹⁾، وأعاناه وساعده ثم خرج زيري إلى طنبنة والمسيلة وحمزة، فنقل منها وجوه الناس⁽²⁾ إلى مدينة أشير، فعمرت وجاءت حصنا منيعا لا يقاتل إلا من شرقها، ويحميها عشرة من الرجال (حسب تعبيره)⁽³⁾.

من المؤرخين الذين أشاروا إلى مدينة حمزة مؤرخ المغرب عبد الرحمن بن خلدون⁽⁴⁾ في كتابه العبر، وهو صاحب الجولات والصولات والذي تعلق في المناصب السامية، كما كان له إطلاع على الوثائق الرسمية بالإضافة إلى أسلوبه المجدد في النقد والتدقيق والتأكد من صحة المعلومات فكان مؤرخا موثوقا.

ذكر حمزة حين تحدث عن دولة آل حماد بالقلعة من ملوك صنهاجة إذ قال: "... حين استقل حماد بأشير والمسيلة سنة 387هـ أيام باديس بن المنصور الزيري، ثم حربه لزنانة سنة 395هـ بالمغرب الأوسط من قبيلة مغراوة وبني يفرن، ثم اختطاط حماد لمدينة القلعة بجبل كتامة سنة 398هـ، وهو جبل عجيسة، ثم يقول أي ابن خلدون: "ونقل إليها (حماد) يقصد القلعة، أهل المسيلة وأهل حمزة⁽⁵⁾ وخرهم⁽⁶⁾، ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها".

(1) نفهم من كلام النويري على لسان محمد القائم بالله الخليفة الفاطمي أنه يفضل مجاورة البربر، رغم أن كلاهما أي زنانة وصنهاجة أصحاب الأشير هما بربر لكن ربما بحكم الحلف الذي كان بين صنهاجة والفاطميين فلم عرب بالمولاة أو ربما في اعتقاده أن صنهاجة عربية الأصل وهذه إحدى الروايات علماء الأنساب.

(2) ربما يقصد هنا وجوه الناس أي أحسنهم أهل الصنائع والحرف أو الجنود وغيرهم.

(3) النويري، المصدر السابق، ص 89.

(4) ابن خلدون.

(5) يفهم من كلام المؤرخين خاصة النويري وابن خلدون أنه كان هناك إجماع أول لسكان حمزة سنة 324هـ من قبل زيري بن مناد لتعمير وتأهيل مدينته المسيلة، ثم كان هناك إجماع ثاني لأهل حمزة وإسكانهم بالقلعة (قلعة بني حماد) سنة 398هـ.

(6) رواية ابن خلدون في تخريب مدينة حمزة تؤكد وتوضح لنا الصعوبة التي وجدها الأثريون في تحديد مدينة حمزة أو سوق حمزة بالضبط. وهو ما جعل دراساتهم تكتسي بالشبهة أو بالتقريبية.

الخاتمة:

تظهر لنا بلاد حمزة أنها مدينة وسوق وهي محاطة بسور، ونجدها في الواقع أوسع من مجرد مدينة، فهي بلاد حمزة فهي إذن إقليم واسع من أهم مدنه "حمزة" التي وُصفت بأن عليها سور وخنديق، وبه آبار عذبة، وكذلك "هاز" التي سكنها العلويين المنتسبين للإمام علي بن أبي طالب والذين سكنوا في مناطق واسعة تمتد من تلمسان إلى المسيلة وما جاورها مروراً بمنطقة متيجة، أما سكائها الأصليين فهم حسب ما سبق ذكره في النصوص بنو برزال الزناتيين والكتاميين وصنهاجة، وإذا كانت صنهاجة وكتامة يجتمعون في البرانس فإن زناتة تعد من بطون البتر كما يقول ابن خلدون، وهذا يدل على التغيرات الاجتماعية الحاصلة بالمنطقة، كما تطرقنا أعلاه إلى خضوع المنطقة للوافدين من العلويين، ثم للفاطميين ومن بعدهم الحماديين وبعدهم عرفت المنطقة مجيء المرابطين وبعدهم الموحيدين ما يدل على الحراك السياسي بالمنطقة، وكل هذا يدل على أهمية المنطقة من حيث الموقع ومن حيث المجال الجيوسياسي.

